



سازمان اسناد و کتابخانه ملی ایران

انتشارات دانشگاه شیراز

۶۹



۱۶ مقاله تحقیقی به زبان عربی

درباره

سیبویه

کنگره جهانی بزرگداشت دوازدهمین سده درگذشت سیبویه

دانشگاه شیراز از ۷ تا ۱۲ اردیبهشت ماه ۱۳۵۳

به اهتمام

احمد افشار شیرازی

نهاد الموسى (الدكتور ...)

(عمّان - الأردن)

الوجهة الاجتماعية في منهج «سيبويه» في كتابه

(فهرس)

من علم اللغة إلى علم اللغة الاجتماعي - البعد الجديد - بلوغ البُعدين - التحليل
اللتغوي الداخلي - الملاحظ الدلالي - في ضوء السياق - الدلالة الاجتماعية للحركة
الإعرابية - الجملة في سياقها الكلامي سياق الحال جزء من اللغة - صور ثقافية - السياق
وأمن اللبس - البناء الجواني في ضوء المعطيات الخارجية - محاكاة التراكيب إلى
مقتضياتها في الخارج - السياق معيار صواب و خطأ - الجواز النحوي - المتغيرات
الخارجية - المتكلم - المعنى الفردي - اختلاف موقف الخطاب - اللغة ظاهرة اجتماعية -
التحليل النحوي والتراكيب الاجتماعي - اللغة والمجتمع - الدين واللغة - احترام .
المراجع .

من علم اللغة ... إلى علم اللغة الاجتماعي

يسمى علم اللغة الاجتماعي ، هذه الأبيات ، أن يمد في دراسة اللغة بعداً جديداً
يتجاوز المدى الذي بلغه علم اللغة الحديث .

ذلك أن منهج البحث في علم اللغة الحديث منهج داخلي يعتمد في تفسير

المتغيرات اللغوية على ظواهر لغوية محضة، ويقوم على قواعد لغوية ذاتية موضوعية^(١). ويستدرك اللغويون الاجتماعيون عليه، أكبر ما يستدركون، اغفاله للسياق الذي تستعمل فيه اللغة^(٢). وهم، مع ذلك، يحترسون من لوم علماء اللغة المحدثين على هذا الإغفال، إذ أنهم لا يتوقعون منهم أن يبلغوا هذه الغاية المزدوجة من دراسة اللغة في آن معا!! وخاصة في مرحلة النشوء والتكوين!! بل هم يعتبرون منهجهم في الإقتصار خطوة مرحلية ممتازة مكنتهم أن يتبينوا اللغة نظاما له منطقها الداخلي وقواعده الداخلية وأتاحت لعلم اللغة الحديث نمواً سريعاً مطرداً.

ثم يتطلع علماء اللغة الاجتماعيون، من وراء ذلك، إلى منهج في درس اللغة يستشر فيها من خلال بُعد أوسع ويحاول أن يبين كيف تتفاعل اللغة مع محيطها^(٣).

البُعد الجديد

ويتمثل هذا البُعد الأوسع، عندهم، في النظر إلى العوامل الخارجية التي تؤثر في استعمالنا للغة. وهي، عندهم، عوامل ثلاثة: أولها: المعنى؛ فإننا على التحقيق، نختار الكلمات والجمل لنقل معنى من نوع ما، والثاني: التشكيل الاجتماعي، فإن المتغيرات الاجتماعية كطبقة المتكلم ومركزه، وطبيعة الموقف الذي يتكلم فيه: أرسمي هو أم غير ذلك... تؤثر في استعمالنا للغة تأثيراً بالغاً، والثالث: التفاوت الفردي بين المتكلمين^(٤). وهذا العامل الثالث محدود التأثير.

وهو يبتدىء، مثلاً، في أن لكل فرد ألفاظاً خاصة مفضلة تدور في كلامه على سعة، كما أن له في صوته خاصية ذاتية مميزة. ومن أمثله أيضاً ما يكون من التزام بعض

(١) انظر، مثلاً:

Robbins Burling: Man's many voices, Holt... New York. 1970, P. V.

(٢) المصدر السابق: ص ٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣.

(٤) انظر المصدر نفسه: ص ٣.

الأشخاص سمنا أكثر رسمية في كلامهم^(١)...

بلوغ البُعْدَيْن

وفي هذه المقالة للبيان عن المدى الذى بلغه «سيبويه» ، في كتابه ، من هذه الجهة ، في ذلك التزم من المتقادم منذ اثني عشر قرنا ، ذلك أنه يبدولي أن «سيبويه» قد استشرف هذين البُعْدَيْن : اللغوي والإجماعي في وصفه لِنَحْوِ العربية ، مزج بينهما مزجا متناسبا متكاملا .

ففي كتابه صور متوافرة من التحليل اللغوي الداخلي ، وفي كتابه ، كذلك ، صور معجبة من تجاوز الدائرة اللغوية الذاتية ، تتمثل في التفاته إلى المعنى ، وتنبهه إلى السياق وما يلابسه من الظروف ، والمتغيرات ، والمعطيات الخارجية التي تكتنف الموقف الكلامي ، من حال المخاطب ، وحال المتكلم ، وموقف الخطاب

و في كتابه ، أيضا ، لمحات رائدة إلى العلاقة بين اللغة وحاجات الاجتماع ، وإلى أثر الدين في اللغة . وفيه ، قبل ذلك وبعده ، وعني عملي عميق على دور اللغة في صياغة المجتمع يتمثل في توجيهه لشوارد التهجات وشواذها توجيها استلهم فيه حركة المجتمع يومذاك في نزوعه إلى التوحيد .

التحليل اللغوي الداخلي

وهو في «كتاب سيبويه» أصل غالب . ولكننا نجتزئ منه هنا بهذه الأمثلة بيانا عنه وميزا له من التحليل الذى يقوم على ملاحظة العوامل الخارجية .

ومن الأمثلة القريبة ، للتحليل الداخلي ، ملاحظ «سيبويه» في «باب اعراب الأفعال المضارعة للأسماء» من «أن هذه الأفعال لها حروف تعمل فيها فتنصبها لاتعمل في الأسماء ، كما أن حروف الأسماء التي تنصبها لاتعمل في الأفعال ، وهي : «أن» ، وذلك قولك : «أريد أن تفعل» . و«كي» ، وذلك : «جئتكم لكي تفعل» .

(١) «بيرلنج» : ص ٧ .

المتغيرات اللغوية على ظواهر لغوية محضة ، ويقوم على قواعد لغوية ذاتية موضوعية^(١). ويستدرك اللغويون الاجتماعيون عليه ، أكبر ما يستدركون ، اغفاله للسياق الذي تستعمل فيه اللغة^(٢). وهم ، مع ذلك ، يحترسون من لوم علماء اللغة المحدثين على هذا الإغفال ، إذ انتهم لا يتوقعون منهم أن يبلغوا هذه الغاية المزدوجة من دراسة اللغة في آن معا !! وخاصة في مرحلة النشوء والتكوين !! بل هم يعتبرون منهم في الإقتصار خطوة مرحلية ممتازة مكنت لهم أن يثبتوا اللغة نظاما له منطقة الداخلي وقواعده الداخلية وأتاحت لعلم اللغة الحديث نمواً سريعاً مطرداً .

ثم يتطلع علماء اللغة الاجتماعيون ، من وراء ذلك ، إلى منهج في درس اللغة يستشر فيها من خلال بُعد أوسع ويحاول أن يبين كيف تتفاعل اللغة مع محيطها^(٣) .

البُعد الجديد

وتمثل هذا البُعد الأوسع ، عندهم ، في النظر إلى العوامل الخارجية التي تؤثر في استعمالنا للغة . وهي ، عندهم ، عوامل ثلاثة : أولها : المعنى ؛ فإننا على التحقيق ، نختار الكلمات والجمل لنقل معنى من نوع ما ، والثاني : التشكيل الاجتماعي ، فإن المتغيرات الاجتماعية كطبقة المتكلم ومركزه ، وطبيعة الموقف الذي يتكلم فيه : أرسى هو أم غير ذلك . . . تؤثر في استعمالنا للغة تأثيراً بالغاً ، والثالث : التفاوت الفردي بين المتكلمين^(٤) . وهذا العامل الثالث محدود التأثير .

وهو مبتدئ ، مثلاً ، في أن لكل فرد ألفاظاً خاصة مفضلة تدور في كلامه على سعة ، كما أن له في صوته خاصية ذاتية مميزة . ومن أمثله أيضاً ما يكون من التزام بعض

(١) انظر ، مثلاً :

Robbins Burling : Man's many voices, Holt... New York. 1970, P. V.

(٢) المصدر السابق : ص ٣ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٣ .

(٤) انظر المصدر نفسه : ص ٣ .

لأشخاص سمنا أكثر رسمية في كلامهم (١)...

بلوغ البُعْدَيْن

وفي هذه المقالة للبيان عن المدى الذى بلغه «سيبويه» ، في كتابه ، من هذه الجهة ، في ذلك الزمن المتقدم منذ اثني عشر قرنا ، ذلك أنه بيدولي أن «سيبويه» قد استشرف هذين البُعْدَيْن : اللغوي والاجتماعي في وصفه لِنَحْوِ العربية ، مزج بينهما مزجا متناسبا متكاملا .

ففي كتابه صور متوافرة من التحليل اللغوي الداخلي ، وفي كتابه ، كذلك ، صور معجبة من تجاوز الدائرة اللغوية الذاتية ، تتمثل في التفاته إلى المعنى ، وتنبهه إلى السياق وما يلابسه من الظروف ، والمتغيرات و المعطيات الخارجية التي تكتنف الموقف الكلامي ، من حال المخاطب ، وحال المتكلم ، وموقف الخطاب

و في كتابه ، أيضا ، لمحات رائدة إلى العلاقة بين اللغة وحاجات الاجتماع ، وإلى أثر الدين في اللغة . وفيه ، قبل ذلك وبعده ، وعني عملي عميق على دور اللغة في صياغة المجتمع يتمثل في توجيهه لشوارد التهجات وشواذها توجيها استلهم فيه حركة المجتمع يومذاك في نزوعه إلى التوحد .

التحليل اللغوي الداخلي

وهو في «كتاب سيبويه» أصل غالب . ولكننا نجتزئ منه هنا بهذه الأمثلة بيانا عنه ومميزا له من التحليل الذى يقوم على ملاحظة العوامل الخارجية .

ومن الأمثلة القريبة ، للتحليل الداخلي ، ملاحظ «سيبويه» في «باب اعراب الأفعال المضارعة للأسماء» من «أن هذه الأفعال لها حروف تعمل فيها فتنصبها لاتعمل في الأسماء ، كما أن حروف الأسماء التي تنصبها لاتعمل في الأفعال ، وهي : «أن» ، وذلك قولك : «أريد أن تفعل» . و«كي» ، وذلك : «جئتكم لكي تفعل» .

و «لَنْ...»^(١).

فقد تنبّه في هذا الباب إلى التلازم بين عنصر لغوي وآخر^(٢)، ثم فسّر^(٣) التغيّر في حركة آخر المضارع^(٤) بظاهرة لغوية أخرى هي دخول أحرف مخصوصة عليه.

ومن أمثلته، أيضا، ما نجد من تصنيفه للأنماط اللغوية وحَمَلِ بعضها على بعض والاستدلال على ذلك بمواقف لغوية. فقد حَمَلَ «أم» المتصلة المسبوبة بهجرة الإستفهام على «أي الإستفهامية» وجعل قولك: «أزيد عندك أم عمرو» بمنزلة قولك: «أيتها عندك» واستدل على ذلك: «أنك لو قلت: أزيد عندك أم» بِشَرِّه فقال المسؤول: «لا»، كان مُحالاً، كما أنه إذا قال أيتها عندك، فقال: «لا»، فقد أحوال^(٥).

ومن أمثلة الوصف التصرفي، عنده، ما نجد من حَصْرِهِ لأبنية مضارع الثلاثي، وميْزَانِيَةِ التلازم من المتعدّي. قال: في «باب عَلِمَ كلّ فعل تعدّك إلى غيرك»: «اعلم أنه يكون كل ما تعدّك إلى غيرك على ثلاثة أبنية: على «فَعِلَ يَفْعِلُ» و«فَعِلَ يَفْعُلُ» و«فَعِلَ يَفْعَلُ» و«فَعِلَ يَفْعُلُ» وذلك نحو: «ضَرَبَ يَضْرِبُ» و«قَتَلَ يَقْتُلُ»، و«لَقِمَ يَلْقِمُ». وهذه الأضرب تكون فيما لا يتعدّك، وذلك نحو: «جَلَسَ يَجْلِسُ» و«قَعَدَ يَقْعُدُ»، و«رَكِنَ يَرْكُنُ». ولما لا يتعدّك ضرب رابع لا يَشْرُكُهُ فيه ما يتعدّك، وذلك «فَعِلَ يَفْعُلُ»، نحو: «كَرُمَ يَكْرُمُ» وليس في

(١) «الكتاب»، تحقيق «عبد السلام هارون»، الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣، الجزء الثالث، ص ٥.

(٢) كالأفعال المضارعة.

(٣) كأحرف التنصب. إذ تدخل على الأفعال المضارعة دون الأسماء، ويقترن

دخولها عليها بحالة التنصب دون الرفع والجزم.

(٤) في اختلافها بين رفع: «هو يقاتل» ونصب: «قرآن يقاتل» وجزم: «لم

يقاتل» رغبة في القتال.

(٥) «الكتاب» (هارون): ١٦٩/٣.

الكلام «فَعَلْتُهُ» متعديًا. ففُضِرَوب الأفعال أربعة يجتمع في ثلاثة ما يتعدّك وما لا يتعدّك وبَيِّنُ بالترابع ما لا يتعدّى وهو «فَعُلَ يَفْعُلُ...»^(١)

ومن وصفه التصرفي الخالص ما لاحظ من أنّ الأكثر في وزن «فَعُلَ» يجمع جمع تكسير، وأنّ الأكثر في «فَيْعِيل» أن يجمع جمع مذكّر سالمًا^(٢).

ومن أمثلة تفسيره للتّطواهر التصرفية تفسيراً داخلياً هذه المسألة في أبنية مصادر الثلاثي. فقد لاحظ «سيبويه» أنّ الفعل الثلاثي الذي وزنه «فَعَلَّ» - بفتح العين - يكون بناء مصدره على وزن «فُعُول» إذا كان لازماً، وعلى هذا جاء «قَعَدَ قُعُوداً» و «جَلَسَ جُلُوساً» و «خَرَجَ خُرُوجاً». فلمّا لاحظ أنهم يقولون: «وَلَجَّهْ وَلُوجاً» و «دَخَلَهُ دُخُولاً» فيجعلون بناء المصدر من فعل المتعدّي على «فُعُول»، وظاهر ذلك مناقضة الأصل الذي قرّره، عند ذلك فزِع إلى تأويله بأنّه «على ولجّت فيه ودخلت فيه ولكنه ألقى في» استخفافاً^(٣) أي أنّ ذلك جاء على الأصل في استعمال هذين الفعلين لازمين بتعديان «في». وواضح أنّ «سيبويه» قد استأنس على ذلك بقاعدة الحذف والإيصال المشهورة، وهي سنة جارية على الفعل العربي في انتقاله من اللزوم والتعدّي بالحروف إلى التعدّي المباشر.

ومن أمثلة تفسيره للتّطواهر الصوتية تفسيراً لغوياً داخلياً تفسيره إمالة الألف إذا وليتها صوت مكسور في ضوء قانون «التشاكل»^(٤) قال في «باب ما تُمالُ فيه

(١) «كتاب سيبويه» الطبعة الأولى، بالمطبعة الأميرية بـ «بولاق»، ١٣١٧، الجزء

الثاني: ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) «الكتاب» (هارون) ٦٤٢/٣.

(٣) «الكتاب» (بولاق): ٢١٦/٢.

(٤) «التشاكل» هي ترجمة «Assimilation» وقد وجدت «ابن الأنباري» (أسرار العربية: ٤٠٦) يستعملها فاخترتها. أما اللغويون العرب المحدثون فقد ترجّحوا هذا المصطلح بـ «المائلة» وانظر: «ابراهيم أنيس»: «الأصوات اللغوية»: ١٢٦ وما بعدها و «محمود السمران»: «علم اللغة»: ٣٨٤ و «رمضان عبدالنّواب»: «الحن العامة»: ٣٧ و «داود عبده»: «أبحاث في اللغة العربية»: ١٥.

الألفاتُ : « فالألفُ تُمالُ إذا كان بعدها حرف مكسور وذلك قولك « عابد » و « عالم » و « مساجدُ » . . . وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها أرادوا أن يقرّبوها منها . . . »^(١) .

الملحوظ الدلالي

وعلى الأعراف بين دراسة اللغة في مجالها الدلاليّ ودراستها في المجال الخارجي نجد « سيديويه » يتجاوز التحليل الشكليّ للتركيب النحويّة والأبنية الصرفيّة، ويتخذ المعنى ملحوظاً ثابتاً في وضع المعايير، وتقرير القواعد، ورسم الحدود بين التصواب والخطأ. وهذا واضح فيما عقد من « باب اللفظ للمعاني »، في أوائل الكتاب، حيث قرّر ما لاحظ في كلام العرب من « اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين كما في «جلس» و «ذهب»، واختلاف اللفظين والمعنى واحد كما في «ذهب» و «انطلق»، واتفاق اللفظين والمعنى مختلف كما في قولك: « وَجَدْتُ عليه » (من الموجدة)، و « وَجَدْتُ » (من وجدان الضالة) »^(٢) .

والمعيار الكلّي الذي أقامه للكلام، بعد ذلك، مبني على هذا الملحوظ الشمولي، مبني على ملاحظة المعاني اللغويّة وفق معطيات العالم الخارجي، ذلك أنّه قدّم الكلام إلى: « مستقيم حسن، ومُحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب »^(٣)، فقد جعل من المحال قولك: « أتيتك غداً »، و « سأتيك أمس »^(٤) .

وحقّاً أنّه يمكن الحكم بخطأ هذين القولين على أساس نحويّ، كأنّ نفترض أنّ في العربيّة طائفة من الظروف منها « غداً » لا تجرى مع أفعال من صيغ معيّنة مثل « أنى »،

(١) « الكتاب » (بولاق) ٢٥٩/٢ .

(٢) « الكتاب »، تحقيق « عبد السلام هارون »، دار القلم ١٣٨٥ هـ . ق . (= ١٩٦٦ م) .

الجزء الأوّل : ص ٢٤ .

(٣) « نفس المصدر » : ٢٥/١ .

(٤) نفس المصدر ونفس الصفحة .

وأنّ فيها طائفة أخرى من الظروف بينها « أمس » لانجى مع أفعال من صيغ مخصوصة مثل « آتى » .

ولكنّ الأقرب إلى القبول أنّ « سيويه » نظر إلى المسألة من وجهة دلالية، ذلك أنّه جعل الإحالة في تبيينك الجملتين من قبيل أنّ أولهما ينتقض بآخرهما ، وذلك لتفات صريح إلى المعنى الدلاليّ لكلّ من « غدا » و « أنى » ^(١) ، في الجملة الأولى ، « أمس » و « آتى » ، في الجملة الثانية ، فكأنّه لاحظ أنّ « غدا » تشير إلى أحداث تقع في الزمن المستقبل ، كما لاحظ أنّ صيغ الماضي من الفعل (مثل آتى) تشير إلى أحداث تقع في الزمن الماضي . واحتكم إلى خبرته الحسية في أنّ الماضي لايجرى مع المستقبل . وهكذا جعل معطيات الواقع الخارجى ملحظا في حكمه اللغوي ^(٢) .

وأوضح من هذا في إثبات أنّ « سيويه » كان يتعدّد بالملاحظ الدلاليّ أنّه جعل قولك : « حملتُ الجبل » ، و « شربتُ ماءَ البحر » ^(٣) ونحو ذلك من الكلام مستقيما كذبا . وهو يريد بالاستقامة أنّ هذا القول جار على مقاييس النحو فكأنّه قولك : « حملتُ الحجر » ، و « شربتُ ماءَ الكأس . . . » أما الكذب فقد استند فيه - لا ريب -

(١) من المصادفات الطريفة أنّ هذه الجملة نفسها قد مثّل بها « بيرلنج » في سياق استدلاله على التمازج بين مستوى التركيب ومستوى الدلالة في اللغة . ومعلوم أنّ المستوى الدلاليّ يبنى على ملاحظة المعاني والأشياء في العالم الخارجى . وانظر في هذا المثال وتناوله إيّاه كتابه : Man's many voices P. 55

(٢) قد ذهب « سيويه » إلى هذا حين جعل الماضي بدلّ على الزمن الماضي (الكتاب، هارون: ١٢/١) وهو الأمر الذى تابعه عليه النحويون . ولكنه يستندرك الآن عليهم بعدما تبين من « أنّ الفعل العربى لايفصح عن الزمان بصيغة ، وإنّما يتحصّل الزمان من بناء الجملة فقد تشتمل على زيادات تعين الفعل على تقرير الزمان في حدود واضحة... » (ابراهيم السامرائى : « الفعل زمانه وأبنيته » : ص ٢٤) .

(٣) « الكتاب » (طبعة هارون) ٢٦/١ .

إلى المستحفظ الدلالي القائم على امتحان المعطيات الخارجية ومواضع الاجتماع حول الحدود الممكنة لعلاقة الإنسان بهذه المعطيات .

وعلى مستوى البنية التصرفية نجد « سيديويه » يجرّد لكثير من التصيف التصرفية معاني دلالية كلية . فلم يقتصر في تعداد صيغ مصادر الثلاثي، مثلاً، على سردها في نطاق علاقتها التشكيلية بصيغة الفعل^(١) . بل راح يقرن الصيغة بالمعنى المشترك الذي رأى أمثلتها المختلفة تلقي عليه، فرأى أن المصدر الذي على « فُعَال »^(٢) يدلّ على « الداء »^(٣) ، والمصدر الذي على « فِعَال »^(٤) يدلّ على « المباحدة »^(٥) ، والمصدر الذي على « فُعَالَة »^(٦) يدلّ على « الزيادة »^(٧) ، والمصدر الذي على « فَعْلَان »^(٨) يدلّ على « الزعزعة »^(٩) . وعلى هذا النحو مضى يجرّد لبعض المعاني صيغاً رآها تكاد تختصّ بها، حيث لاحظ أن « ما كان من الجوع والعطش فإن أكثر ما يبنى في الأسماء على « فَعْلَان »... »^(١٠) ،

(١) فيقف عند حدّ القول أن « فَعْل » هي صيغة المصدر من « فَعِل » التلازم (فَرِح : فَرَح ، بَطِر : بَطَر) و « فُعُول » هي صيغة المصدر من « فَعَل » التلازم (جلس : جلوس ، صمد : صمود) و « فَعْل » هي صيغة المصدر من « فَعِل » المتعدّي (أكل : أكل ، قمع : قمع) وهكذا .

(٢) كـ « السُعَال » و « الصُدَاع » .

(٣) « الكتاب » (بولاق) : ٢١٧/٢ .

(٤) كـ « الفِرَار » و « الشَّرَار » و « الشَّمَّاس » و « النُّفَار » .

(٥) « الكتاب » (بولاق) : ٢١٧/٢ .

(٦) كـ « القُلَامَة » و « القُرْاضَة » و « النُّفَاية » و « الحُفَالَة » .

(٧) « الكتاب » (بولاق) : ٢١٧/٢ .

(٨) كـ « التَّزْوَان » و « النَّفْزَان » و « الغَلِيَان » .

(٩) « الكتاب » (بولاق) : ٢١٨/٢ .

(١٠) « الكتاب » (بولاق) : ٢٢٠/٢ . ومن أمثلة ذلك : « عَطْشَان » ، و « ظَمْآن »

و « صَدْيَان » .

(١) المصدر : سيديويه (١٩٣٤) (٢) فاعل (٣) وب (٤) فاعل (٥) فاعل (٦) فاعل (٧) فاعل (٨) فاعل (٩) فاعل (١٠) فاعل

«وَأَنَّ الْأَلْوَانَ تَبْنَى عَلَى «فَعَلَّ»...»^(١).

وهو، بهذه الملاحظة، كأنما كان يمهّد الطريق أمام المجامع اللغوية، فيما بعد، وهي تسعى في وضع المصطلحات الدالة على هذه المعاني وأشباهها، قياساً^(٢) على هذه الصبغ التي جردّها، وخرّج لها دلالاتها.

ويتعمّق المتلحّظ الدلالي منهجه حتّى ترتبط عنده صبغ معلومة بمعان معينة، مستمدة من تصنيف الأشياء في العالم الخارجي إلى إنسان و غير إنسان... إلخ، فقد ذكر في «باب تكسير الصّقة للجمع» أنّ «ما كان «فَعَلًا» فإنه يكسّر على «فِعَالٍ»... وذلك: «صَعْبٌ» و«صِعَابٌ» و«عَبْلٌ» و«عِبَالٌ» و«فَسَلٌ» و«فِيسَالٌ»، و«خَدَلٌ» و«خِدَالٌ». وقد كسّروا بعضه على «فُعُولٍ»، وذلك نحو «كَهْلٌ» و«كُهُولٌ» ثم قرّرعقب ذلك: «أنّه ليس شيء من هذا إذا كان للآدميين يمتنع من أن يجمعه بالواو والنون». وذلك قولك: «صَعْبُونَ» و«خَدَلُونَ». وقال الراجز:

«قَالَ سَلَيْمَى لَا أَحِبُّ الْجَعْدِينَ»

.....^(٣)

وذكر، أيضاً، أنّ «ما جاء على «فَعَلَّ» التّذي جمعه «فِعَالٍ» إذا لحقته الهاء للتأنيث كُسّر على «فِعَالٍ» كما فُعِلَ ذلك بـ«فَعْلَلٍ» ثم قرّر: أنّ «ليس شيء من هذا للآدميين يمتنع من الواو والنون» وذلك قولك: «حَسَنُونَ»، و«عَزَبُونَ»...»^(٤) كأنما أصبح الجمع السالم بـ«واو ونون» في مقاييس التصرف، هو جمع الآدميين دون غيرهم من الخلق والأشياء.

(١) «الكتاب» (بولاقي): ٢٢٢/٢. ومن أمثلته: «أحمر» و«أصفر» و«أبيض».

(٢) أنظر في أمثلة هذا: مجموعة القرارات العلميّة التي أصدرها «مجمع اللغة

العربيّة» في «القاهرة» خلال ثلاثين عاماً.

(٣) «الكتاب» (هارون): ٦٢٦/٣، ٦٢٧.

(٤) المصدر السابق ٦٢٨/٣، وانظر في مثل هذا أيضاً ٦٢٩/٣.

في ضوء السياق

وتلقانا في «الكتاب» أمثلة كثيرة من الجمع بين التفسير اللغوي وملاحظة السياق. وذلك حيث نراه يقف إلى تراكيب مخصوصة فيردها إلى أنماط لغوية مقررة، وبقدر ما يكون عرض لها من الوجهة اللغوية الخالصة من حذف أو غيره، وفق نظرية العامل. ولكنه لا يقف عند ذلك، بل يتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام... وقد هداه هذا الإتساع إلى أستكناه البنية الجوانبية للتراكيب النحوي^(١)، ورسم خطوط هادية في تعلم العربية تعلمًا يضع كل تركيب موضعه، ويعرف لكل مقال مقامه.

قال في تفسير قولهم: «أتمميًا مرةً وقيسيًا أخرى»: «وإنما هذا أنك رأيت رجلا في حال تلون وتنقل، فقلت: أتمميًا مرةً وقيسيًا أخرى، كأنك قلت: «أنحوّلُ تمميًا مرةً وقيسيًا أخرى. فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تلون وتنقل، وليس يسأله مسترشداً عن أمرٍ هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه، ولكنه وبخه بذلك.

وحدثنا بعض العرب، أن رجلا من بني أسد قال: «يومَ جبلة»، واستقبله بعير أعور فتطير منه، فقال: «يا بني أسد أعور وذا ناب». فلم يرد أن يسترشدهم ليخبروه عن عوره وصحته، ولكنه نبههم، كأنه قال: أنستقبلون أعور وذا ناب! فالاستقبال في حال تنبيه إياهم كان واقعا، كما كان التلون والتنقل عندك ثابتين في الحال الأول، وأراد أن يثبت لهم الأعور ليحذروه»^(٢).

الدلالة الاجتماعية للحركة الإعرابية

وفد يوغل «سيويوه» في تطبيق نظرية العامل، وتكون الفتحة، عنده، اشعارا

(١) مثل التركيب النحوي: الإستفهام، أمّا مَسَلُ البنية الجوانبية فدلالته على

التقرير في إطار سياق معين.

(٢) «الكتاب» (هارون): ٣٤٣/١.

بعامل من الفعل (صبرا ، شكرا)^(١) ، وتكون التضمّة إشعارا بعامل من الاسم (صبر ، شكر)^(٢) غير أنّه لا يقف عند ذلك ، ونراه يلتبس للفتحة و ما يستكين وراءها من دلالات الحدوث في الفعل ويلتبس للتضمّة وما تشي به من دلالة الثبوت في الاسم تفسيراً في مذهب الإستعمال . وإذا هو لا يرى في كل منها وجهاً في الإعراب متميّزاً وحسب ، بل يرى في كل منها وجهاً في الإستعمال متميّزاً ، وموقفاً إجتماعياً متميّزاً ، في آن معا .

قال في تفسير قولهم : « له عِلْمٌ الفقهاء » ، و « له رأى رأى الأُصلاء » : « وإِنما كان الرفع في هذا الوجه ، لأن هذه خِصالٌ تذكروها في الرجل ، كالخِلم والعلم والفضل ، ولم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل في حال تَعَلَّم ولا تَفْهَم ، ولكنك أردت أن تذكر الرجل بفضل فيه ، وأن تجعل ذلك خصلة قد استكملها ، كقولك : « له حَسَبٌ حَسَبُ الصالحين » ، لأن هذه الأشياء وما يُشبهها صارت تحلية عند الناس وعلامات ... ثم أردف : « وإن شئت نصبت فقلت : « له علمٌ علم الفقهاء » ، كأنك مررت به في حال تَعَلَّم وتَفَقَّه ، وكأنه لم يستكمل أن يقال له : « عالمٌ ... »^(٣) .

وعلى هذا النحو ميّز بين قولهم : « من ذا خيرٌ منك » ، وقولهم : « من ذا خيرٌ منك » إذ أوغل إلى ما وراء الفرق النحوي بينهما في أن « خير » ، في الرفع ، خبر لمبتدأ محذوف في جملة الصلة ، على تقدير من ذا (الذي) هو خير منك ، وأن « خيراً » ، في التنصب حال من الاسم الموصول . قال : « وأمّا قولهم : « من ذا خير منك » ، فهو على قوله « من الذي هو خير منك » ، لأنك لم ترد أن تشير أو ترمي إلى إنسان قد استبان لك فضله على المسؤول فيُعَلِّمَك ، ولكنك أردت : « مَنْ ذا الذي هو أفضل منك » . فإن

(١) حيث ينتصب المصدر على المفعول المطلق نائبا عن فعله .

(٢) إذ يرتفع المصدر خبراً لمبتدأ محذوف وجوبا في التأويل المتعارف .

(٣) الكتاب (هارون) ٣٦١/١ ، ٣٦٢ . وقد زاد « سيبويه » هذه المسألة بيانا

وشقّق فيها القول في هذا الموضع نفسه ولكنه لم يتجاوز عن هذا الأصل الذي ذكرنا ، وهو الأصل المفهوم من هذا القدر الذي اجتزأنا به ، اختصارا .

أومات إلى إنسان قد استبان لك فضلُه عليه ، فأردت أن يُعَلِّمَكُهُ نصبتَ « خيرا منك » ، كما قلت « مَنْ ذَا قائمًا » ، كأنتكَ قلت : إنَّما أريد [أن] أسألك عن هذا الذي قد صار في حالٍ قد فضَّلَكَ بها . ونصبُه كنصب : ما شأنك قائمًا ^(١) .

وعلى هذا النحو المعجب ، أيضا ، مضى رسمُ للتعظيم المقطوع منهجه في الإستعمال ولم يكتف بالإشارة إلى أن هذا التعظيم قد ينتصب ^(٢) مرادا به التعظيم ، بل وقف إلى التعظيم بيِّنَ مفهومه من خلال قيم المجتمع ، وبيِّنَ مواضعه من خلال هذه القيم أيضا . وهكذا حتَّى تأخذ الحركة ، عنده ، معناها النحوي ومعناها الإجتماعي ، بل إنَّه لا يتمَّ للحركة معناها النحوي عنده ولا يستقيم لها ذلك إلا إذا وقعت في أبعادها الإجتماعية الصحيحة . قال : « واعلم أنَّه ليس كلَّ موضع يجوز فيه التعظيم ، ولا كلَّ صفة يحسن أن يعظَّم بها . لو قلت : مررت بعبد الله أخيك صاحب الثياب أو البرَّاز ، لم يكن هذا ممَّا يعظَّم به الرَّجل عند النَّاس ولا يفخَّم به وأمَّا الموضع الذي لا يجوز فيه التعظيم فأنَّ تذكُّر رجالاته بنبيه عند النَّاس ، ولا معروف بالتعظيم ثمَّ تعظُّمهم كما تعظَّم النبيه ... » ^(٣) .

الجملة في سياقها الكلامي

ويعرَّف « سبويه » للجملة حدودها واستقلالها ، ولكنه أيضا ، يدرك أنَّ الجملة جزء من سياق كلامي موصول وزاه يتجاوز النَّظر إليها في ذاتها ويمدَّ بصره إلى ماحولها من عناصر السِّياق الكلامي . ثمَّ نراه يعتدُّ الموقف الكلامي كسلا واحدا فيغتفر حذف أحد العناصر من الجملة إذا كان في سياقها الكلامي دليل عايه . قال : « فأما الفعل الذي لا يتحسن لإضماره فإنه أن تنتهي إلى رجل لم يكن في ذِكْر ضَرْبٍ ، ولم يخطر بباله ، فنقول :

(١) « الكتاب » ، (هارون) : ٦١/٢ .

(٢) على تقدير فعل مستفاد منه المدح أو التعظيم كقولك : « قرأت سيرة صلاح الدين الأيوبي فاتح القدس » .

(٣) « الكتاب » (هارون) : ٦٩/٢ .

«زيدا»، فلا بدَّ له من أن تقول له: «اضرب زيدا»... وأما الموضع الذي يُضمَّر فيه واظهاره مستعمل، فنحو قولك «زيدا»، لرجل في ذكر ضرب تريد: «اضرب زيدا»...^(١)

سياق الحال جزء من اللغة

و على نحو ما يلاحظ «سيبويه» أن الكلام يتألف من عناصر لغوية خالصة، يلاحظ أنه قد يقوم على عناصر لغوية، وعناصر أخرى من العالم الخارجي نراها، أو نسمعها أو نمتها، أو نشمتها، أو نذوقها. وتصبح هذه الأشياء الواقعة في مجال خبرة الحواس، عنده، كأنها أجزاء في بناء اللغة تقوم مقام العناصر اللغوية الخالصة من الألفاظ.

قال في باب عقده في حذف المبتدأ و ذكر الخبر^(٢): «و ذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: «عبد الله...» كأنك قلت: «ذاك عبد الله»، أو «هذا عبد الله». أو سمعت صوتا فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت: «زيد...» أو مسست جسدا أو شممت ريحا فقلت: «زيد»، أو «المسك»، أو ذقت طعاما فقلت: «العسل...»^(٣).

وهذه آيات دالة على أن «سيبويه» أدرك ما يكون من اندغام اللغة في نظامها الداخلي الخاص، بالحياة في مجالها الخارجي العام، أو أدرك أن بين اللغة وسياقها الاجتماعي علاقة عضوية، كما يعبر التماس هذه الأيتام.

صور ثقافية

ويدرس «سيبويه» حذف الفعل^(٤)، ويحصى مواضع من مواضعه، وهو يربط

(١) «الكتاب» (هارون): ٢٩٦/١ و ٢٩٧.

(٢) عبر عنه «سيبويه» بقوله: «هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرا و يكون المبني عليه مظهرًا». «الكتاب» (هارون): ١٣٠/٢.

(٣) «المصدر السابق» في الموطن المتقدم نفسه.

(٤) في غير المواقع التي ينوب عنه فيها المصدر أمرا أو نهيا (صبرا، قياما لاقعودا).

كل موضع من مواضع الحذف بملايسات من السياق أو مواقف و الاجتماع تعوض الحذف وتدل عليه، فكان عنصر لغويًا حذِف ، وعنصر اجتماعيًا ذُكِر ، أو كأن الموقف اللغوي ليس إلّا مزيجًا وثيقًا من عناصر هذا النظام اللغوي و معطيات ذلك الواقع الاجتماعي من حوله .

وعلى هذا النحو يسعدنا « سيويه » بصور ثقافية من حياة المجتمع الإسلامي كانت بدلا من عناصر لغوية تحذف، قال : « اذا رأيت رجلا متوجّها وجهه الحاج ، قاصدا في هيئة الحاج ، فقلت : « مكّة » كأنك قلت : يريد « مكّة » . . . »^(١) « ولورأيت ناما ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا لقلت : « الهلال » . . . أى أبصروا الهلال . . . »^(٢) . وقال في تفسير قولهم : « بيع المتلطى »^(٣) لا عهد ولا عقد : « وذلك إن كنت في حال مساومة وحال بيع ، فتدع « أبايعك » استغناء بما فيه من الحال . . . »^(٤)

وعلى هذا النحو أيضا ، يسعدنا « سيويه » ، في مبحث آخر ، بصور من مواضع التعامل التجاري في بعض أقاليم العالم الإسلامي . قال : « وأمّا قول الناس : كان البئر قفيزين ، وكان السمن منسوين ، فإنما استغنوا هاهنا عن ذكر الدرهم لهما في صدورهم من علمه ، ولأن الدرهم هو الذي يسعر عليه ، فكانتهم إنما يسألون عن ثمن الدرهم في هذا الموضع ، كما يقولون : البئرستين ، وتركوا ذكر الكسر^(٥) ، استغناء بما في صدورهم من علمه ، و يعلم المخاطب ، لأن المخاطب قد علم ما يعني ، فكانته إنما يسأل هنا عن ثمن « الكسر » كما سأل الأول عن ثمن الدرهم . . . »^(٦)

(١) « الكتاب » (هارون) ٢٥٧/١ .

(٢) « الكتاب » (هارون) : ٢٥٧/١ .

(٣) المتلطى : البيع بغير رجوع .

(٤) « الكتاب » (هارون) ٢٧٢/١ .

(٥) الكر ، بالضم ، مكيال لأهل العراق ، ستون قفيزاً أو أربعون إردباً .

(٦) « الكتاب » (هارون) ٣٩٣/١ .

السياق وأمن اللبس

وتنبّه « سيديويه » إلى دور السياق في أمن اللبس، وتحديد « البناء الجوّاني »^(١) المقصود من « البناء البرّاني »^(١) ذى الاحتمالات فقد لاحظ أن قولنا :

« ما أُنَاك رجل » على هذا « البناء البرّاني » الواحد يحتمل دلالات ثلاثا باطنة :

أولها : « ما أُنَاك رجل واحد بل أكثر » .

والثاني : « ما أُنَاك رجل ذكر بل امرأة » .

والثالث : « ما أُنَاك رجل قوى نافذ بل ضعيف » .

وإذن يكون لاحظ أن كلمة « رجل » مرشحة لأن تُخلَص لشعبة من شعب

معناها التصرفي وهي العدد كما أنّها مرشحة لأن تُخلَص لشعبة أخرى من شعب المعنى

التصرفي وهي الجنس، وأنّها ، أيضاً ، مرشحة لأن تُخلَص لأحد ظلال المعنى الدلاليّ

(الترجولة قوة ونفاذا) ، ولاحظ ، أيضاً ، أن « سياق الكلام والحال وما يكتنفه من قرائن

و موضع الجملة منه هو العامل الحاسم في التمييز ونفي اللبس » . قال : « يقول الرجل :

« أنا ناني رجل » ، يريد واحداً في العدد لا اثنين فيقال : « ما أُنَاك رجل » ، أي أناك أكثر من ذلك ،

أو يقول : « أنا ناني رجل لا امرأة » فيقال : « ما أُنَاك رجل » ، أي « امرأة أنتك » ، ويقول :

« أنا ناني اليوم رجل » ، أي في قوته ونفاذه ، فنقول . « ما أُنَاك رجل » ، أي أناك الضعفاء . »^(٢)

(١) البناء البرّاني و البناء الجوّاني ترجمة نرضيها لعبارتَي Surface Structure

و Deep (Underlying) Structure ، على الترتيب ، فإنّ للفظيّ : « البرّاني » و « الجوّاني »

وجوداً معاصراً من جهة ووجوداً تاريخيّاً من جهة أخرى ، وفي حديث « سليمان » : « أن

لكلّ امرئ جَوَانِيَا وَبَرَانِيَا . فمن أصلح جَوَانِيَةً أصلح الله بَرَانِيَةً » وهذا اللفظان ،

من بعد ، متقابلان ، وإحاطة الدلاليّ يفيد أن بينهما علاقة تمازُج وتوافق أو تخالف ، مقارنة

للمراد بالعبارتين في الإنجليزِيّة في اصطلاح نظريّة التحولات الحويلي .

(٢) « الكتاب » (هارون) ٥٥/١ .

البناء الجوّاني في ضوء المعطيات الخارجية :

وفي هذه السبيل ، أيضا ، ما يعقد «سيبويه» من ذلك الباب في «استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام ، والإيجاز والاختصار» ، اذ تناول فيه تراكيب من اللغة جارية على مقاييس التشكل النحويّ العربيّ لواقصر فيه على علاقات التشكل . ولكن «سيبويه» لا يقف عند ذلك ، مع قربه ووضوحه ، بل يحاكم هذه التراكيب إلى معطيات العالم الخارجي أو إلى وقائع المجال الاجتماعيّ الذي تستعمل فيه ، فيكشف عن أبنيتها الجوانية ، مفسّرا كيف إنتهى إليها أهل اللغة توسّعا واختصارا واستغناء بخبراتهم الخاصة . ومن أمثلة هذا الباب عنده : « أن تقول على قول السائل : كمّ صيد عليه ؟ وكمّ غير ظرف لما ذكرت لك من الإتساع والإيجاز ، فتقول : «صيد عليه يومان» . وإنما المعنى صيد عليه الوحش في يومين ، ولكنه اتسع واختصر . ولذلك أيضا وضع السائل كمّ غير ظرف . ومن ذلك أن تقول : «كم ولد له» ؟ فيقول : «ستون عاما» . فالمعنى وُلِدَ له الأولاد وولِدَ له الولدُ ستين عاما ، ولكنه اتسع وأوجز^(١) .

وواضح أن قولنا : «صيد عليه يومان» ، في بنائه البرانيّ ، مطابق قولنا : «صيد عليه غزالان» ، و «استدرك عليه مسألان» ، و «أخذ عليه أمران» ، وأنّ العلاقة التشكليّة بين «يومان» و «صيد» هي علاقة التناوب عن الفائل بفعله المنبنيّ للمجهول . وذلك شأن قولنا «ولد له ستون عاما» .

ولكن الأيّام والأعوام ، حين نحتكم إلى المواضع الاجتماعية ، لاتصاد ولا تولد ، إنّما يصاد فيها ويولد فيها ، فهي ظروف ومادام الذي يصاد ويولد متعيّنا معروفا بما تؤدّي إليه الخبرة الاجتماعية المشتركة فقد حذف .

ولاريب أن استثناس «سيبويه» بهذه الأضواء الخارجية هو الذي هداه إلى الفرق الجوّاني بين تركيبين لها شكل برّاني واحد مثل : «صيد عليه غزالان» ، و «صيد عليه يومان» .

(١) «الكتاب» (هارون) ٢١١/١ .

محاكمة التراكيب إلى مقتضياتها في الخارج :

ويعرض « سيبويه » ، كذلك ، لأنماط متعارفة في الإستعمال مثل قولهم : « كَلَّمْتُهُ فَاهَ إِلَى فِيَّ » و « بَايَعْتُهُ يَدَايِيدَ . . . » فلا يكتفي بأن يخرج لها معانيها النحوية ، بل يعمضي يفسر هذا التلازم التركيبي بين عناصرها . ويحكم في ذلك إلى مدلولات هذه الأنماط عند أبناء اللغة ، فيلاحظ أن هذه المدلولات ، في مقتضياتها الخارجية ، مركبة ، وأنها تستلزم في التعبير عنها « مَرْكَبًا » من العناصر اللغوية . قال : « واعلم أن هذه الأشياء لا يتفرد منها شيء دون ما بعده ، وذلك أنه لا يجوز أن تقول : « كَلَّمْتُهُ فَاهَ » حَتَّى تَقُولَ : « إِلَى فِيَّ » ، لَأَنَّكَ إِنَّمَا تَرِيدُ مَشَافَهَةً ، وَالْمَشَافَهَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ اثْنَيْنِ ، فَإِنَّمَا يَصَحُّ الْمَعْنَى إِذَا قُلْتَ : « إِلَى فِيَّ » وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ : « بَايَعْتُهُ يَدَا » ؛ لِأَنَّكَ إِنَّمَا تَرِيدُ أَنْ تَقُولَ : « أَخَذَ مِنِّي وَأَعْطَانِي » ، فَإِنَّمَا يَصَحُّ الْمَعْنَى إِذَا قُلْتَ : « بَيَّعَ » لِأَنَّهُمَا عَمَلَانِ . . . » (١)

وفي هدى هذا التوجيه لا يستقيم عند « سيبويه » أن تقول : « هذا أنت » . وهو يعلل ذلك بـ : « أَنَّكَ لَا تُشِيرُ لِلْمَخَاطَبِ إِلَى نَفْسِهِ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا تُشِيرُ لَهُ إِلَى غَيْرِهِ » (٢) .

وهو يستمد هذا التعليل من تحليل موقف الإشارة ؛ لاحظ أنه يقوم في المواضع المألوفة على جهات ثلاث : المتكلم (المشير) ، والمشار إليه ، والمخاطب (المشار له) ، ولاحظ أن المخاطب جهة لازمة هذه الجهات ، ولكنه جهة واحدة ، فلا يجوز في حكم التحليل الخارجي للعبارة أن يكون المخاطب مشارا إليه ومشارا له في آن معا .

ولو وقف « سيبويه » عند حد النظرة الداخلية المجردة لكان حقا عليه أن يجيز قول القائل : « هذا أنت » كما يجيز قولنا : « هذا سور القدس » ، « هذا جوابهم » ... الخ .

السياق معيار صواب وخطأ :

وبلغ « سيبويه » من اعتبار موقف الإستعمال أن يجعله فيصلا في الحكم بصحة

(١) « الكتاب » (هارون) : ٣٩٢/١ .

(٢) « المصدر السابق » : ١٤١/١ .

التراكيب النحوية وخطئها . ومن ذلك أنك تراه يقف إلى الجملة الواحدة فيحكم عليها ، في موقف من الإستعمال ، بأنها خطأ ، وفي موقف من الاستعمال آخر ، بأنها صواب . وهذه الجملة ، لو اكتفى بالنظرة الشكلية الذاتية ، جملة نحوية جائزة . ولكن اللغة ، عنده ، لم تكن تستفكك عن ملابسات استعمالها ، ومقاييس اللغة عنده تستمد من معطيات النظام الداخلي للبناء اللغوي كما تستمد من معطيات السياق الاجتماعي التي تكتنف الإستعمال اللغوي .

قال يداريس هذه الجملة : « أنا عبد الله منطلقا » : . . . وذلك أن رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال : « أنا عبد الله منطلقا » ، وهو زيد منطلقا ، كان مُحالاً ، لأنه إنَّما أراد أن يخبرك بالإنطلاق ، ولم يَقُلْ « هو » ولا « أنا » حتى استغنييت أنت عن التسمية ، لأن « هو » و « أنا » علامتان للمضمر ، وإنَّما يضمرا إذا علم أنك قد عرفت من يعني . لا أن رجلا لو كان خلف حائط أوفي موضع تجهله فيه فقلت : « من أنت ؟ » فقال : « أنا عبد الله منطلقا في حاجتك » ، كان حسنا ^(١) .

الجواز النحوي والمتغيرات الخارجية :

ومن المعجب أن نجد « سيبويه » ينفذ إلى إدراك العلاقة بين اختيار إحدى صور جائزة ^(٢) في تركيب نحوي واحد وبين اختلاف أحوال المتكلم في موقفه من عناصر ذلك التركيب . وذلك حيث يعرض للجملة الفعلية التي فعلها متعدي نحو : « ضرب عبد الله زيدا » . فقد أشار إلى صورة أخرى جائزة في هذه الجملة وهي : « ضرب زيدا عبد الله » ، بتقديم المفعول على الفاعل ، ولاحظ أن المعنى النحوي لـ « زيد » و « عبد الله » غير مختلف في كلتا الجملتين ، ثم فسّر الاختلاف الجائز في ترتيبهما بأنَّهم « إنَّما يقدمون

(١) الكتاب (هارون) ٢ / ٨٠ ، ٨١ .

(٢) قارن هذه المسألة بما يقول « بيرلنج » في كتابه : - Man's many voices - P. 69 حيث يرى أن المتغيرات الخارجية إنَّما تؤثر في اللغة في تلك المواضع التي يبيح فيها النحو الاختيار (أي يُدخلها في سعة الجواز) ، فإن « سيبويه » يبدو وكأنه قد راد هذه الطريق ، عملياً ، منذ اثني عشر قرناً .

الَّذِي بَيَّنَّاهُ أَهْمُهُمْ ، وَهَمُّ بَيَّانِهِ أَعْنَتِي ، وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يَهْمَانَهُمْ وَيَعْنِيَانَهُمْ ^(١) .
 وَوَاضِحٌ بِذَلِكَ أَنَّهُ تَنَبَّهَ إِلَى أَثَرِ الْمَتَغَيَّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ (كَالْمَتَكَلَّمِ وَمَوْقِفِهِ الْخَاصِّ
 مِنْ كُلِّ مَنْ الْعَنْصَرِينَ) فِي اخْتِيَارِ أَحَدٍ وَجْهَيْنِ وَجَائِزَيْنِ فِي مَقْيَاسِ التَّنْحَوِ . وَوَاضِحٌ
 بِذَلِكَ أَنَّهُ يَرْسُمُ لِأَبْنَاءِ اللَّغَةِ أَنْ يَسَاوِقُوا بَيْنَ الْمَتَغَيَّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ وَبَيْنَ الْوُجُوهِ الْجَائِزَةِ
 الْمُنَاسِبَةِ عِنْدَ اسْتِعْمَالِ اللَّغَةِ .

وَقَدْ طَرَدَ « سَيُوبَةُ » هَذِهِ الْقَاعِدَةَ عَلَى نَحْوِ يَدَلٍّ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ قَائِمَةً فِي نَفْسِهِ
 جُزْءًا مِنْ مَنِهْجِهِ التَّنْحَوِ ، إِذْ طَبَّقَهَا عَلَى مَسْأَلَةِ الْجَوَازِ فِي تَرْتِيبِ الْفَاعِلِ مَعَ الْمَفْعُولِ كَمَا
 تَقْدَمُ ثُمَّ طَبَّقَهَا عَلَى مَسْأَلَةِ الْجَوَازِ فِي تَرْتِيبِ النَّائِبِ عَنِ الْفَاعِلِ مَعَ الْمَفْعُولِ ^(٢) ، ثُمَّ طَبَّقَهَا
 عَلَى مَسْأَلَةِ الْجَوَازِ فِي تَرْتِيبِ اسْمِ كَانَ مَعَ خَبَرِهَا ^(٣) وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يَرْبِطُ هَذِهِ
 الْمَسَائِلَ الْمُتَعَدِّدَةَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَيُرَدِّدُهَا جَمِيعًا إِلَى تِلْكَ الْقَاعِدَةِ ^(٤) .

المتكلم

وَيَمْتَحِنُ « سَيُوبَةُ » الْفِعْلَ « رَأَى » فَيَرَى لَهُ عَمَقَيْنِ دَلَالِيَيْنِ : فَهُوَ يَأْتِي عَلَى مَعْنَى
 الْإِبْصَارِ الْحَسِّيِّ (رُؤْيَا الْعَيْنِ) وَعَلَى مَعْنَى الْعِلْمِ التَّصْمِينِيِّ ، وَيَرَى لَهُ ، أَيْضًا ، مَعْنِيَيْنِ نَحْوِيَيْنِ ،

(١) « الكتاب » (هارون) : ٣٤/١ .

(٢) « المصدر السابق » : ٤٢/١ .

(٣) « المصدر السابق » : ٤٧، ٤٥/١ وانظر أيضا ٥٦، ٨١ .

(٤) قَالَ (الْكِتَابُ ٤٢/١) : « وَانْ شَتَّتْ قَدَمْتُ وَأَخْرَجْتُ فَقُلْتُ : « كُسَيْبِي
 الثَّوْبَ زَيْدٌ » ، وَ« أُعْطِيَ الْمَالَ عَبْدُ اللَّهِ » ، كَمَا قُلْتُ : « ضَرَبَ زَيْدًا عَبْدُ اللَّهِ » . فَأَمْرُهُ فِي
 هَذِهِ كَأَمْرِ الْفَاعِلِ . وَقَالَ ، أَيْضًا (الْكِتَابُ ٤٥/١) : « وَانْ شَتَّتْ قُلْتُ : « كَانَ أَخَاكَ
 عَبْدُ اللَّهِ » ، فَقَدَمْتُ وَأَخْرَجْتُ كَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فِي « ضَرَبَ » لِأَنَّهُ فَعَلَ مِثْلَهُ ، وَحَالُ التَّقْدِيمِ
 وَالتَّأْخِيرِ فِيهِ كَحَالِهِ فِي « ضَرَبَ » وَقَالَ ، ثَالِثًا (الْكِتَابُ ٤٧ / ١) : « ... كَانَ زَيْدٌ
 حَلِيمًا ، وَكَانَ حَلِيمًا زَيْدٌ ، لِأَعْلَيْكَ أَقْدَمْتُ أَمْ أَخْرَجْتُ ، إِلَّا أَنَّهُ عَلَى مَا وَصَفْتُ لَكَ فِي
 قَوْلِكَ : ضَرَبَ زَيْدًا عَبْدُ اللَّهِ ... »

فهو ، على معنى الإبصار ، يتعدى إلى مفعول واحد ، وهو ، على معنى العلم ، يتعدى إلى مفعولين ، ويفزع «سيبويه» في البيان عن فرق ما بين المعنيين إلى المجال الاجتماعي ويجرد من معطياته موقفا ساطع الدلالة هو موقف المتكلم إذا كان أعمى فيقول متسانلا : «ألتري أنه يجوز للأعمى أن يقول : «رأيت زيدا الصالح»...»^(١) .

وواضح أنه ، هنا ، يحاكم التعبير اللغوي إلى ملابساته الخارجية ، فينظر في حال المتكلم ويجعله فيصلا في الحكم التحوي جوازا ومنعاً .

ولو أراد دارس معاصر في علم اللغة الاجتماعي أن يصوغ مقالة «سيبويه» هذه على نحو آخر لقال ان استعمال الفعل «رأى» يختلف بين أن يكون المتكلم أعمى وأن يكون بصيرا ، فإذا كان مبصرا استطاع أن يستعمله على وجهين فيقول مثلا : «رأيت الهلال» ، «رأيت الوحدة قوة» ، وإذا كان أعمى فإنه يمكن له أن يستعمله على الوجه الثاني دون الأول . ويكون هذا الفرق قائما على حقيقة خارجية ، وإلا فإن اللغة في نظامها الداخلي الذاتي لاتقيم هذا الفرق ولا تقول في هذا الموضع بجواز ومنع .

المعنى الفردي :

وعرض «سيبويه» لـ «قال» وتصاريفها وأنتها «إنما وقعت في كلام العرب على أن يحكى بها» ثم وقف إلى أنهم يستثنون من ذلك «تقول» في الإستفهام اذ يشبهونها بـ «تظن» . قال : «ولم يجعلوها كـ «يظن» و«أظن» في الإستفهام ، لأنه لا يكاد يُستفهمُ المخاطبُ عن ظنّ غيره ، ولا يُستفهم هو إلا عن ظنّه»^(٢) . وكأنما يصنف «سيبويه» موضوعات الإستفهام إلى معان فردية خاصة لا يعلمها إلا الفرد أو لا يكاد يعلمها غيره ، وهي الخفي المستكن من خواطره وواجسه ونواياه ، وظنونه ، وأمور فردية ظاهرة للناس يعلمونها عنه على نحو مما يعلمها هو .

(١) «الكتاب» (هارون) : ٤٠/١ . وواضح أن «الصالح» هنا ليس نعنا لـ «زيد»

وانما هو مفعول ثان لـ «رأى» .

(٢) «الكتاب» (هارون) : ١٢٢/١ .

وهكذا تستفهم المخاطب ، إن استفهمته ، عما يكون من أمره هو ظاهره (أنسافر إلى الأندلس) وباطنا (أظن الإنسان شريرا ؟) ، ولكنك لا تستفهمه عن أمر غيره إلا ما ظهر (أبواظب أخوك على علمه ؟) ، أما الظن الباطن في نفوس الآخرين فهو ما لا يستفهم عنه إلا صاحبه . ولا يسوغ لك أن تسأل مخاطبك : « أبطن إباد الإنسان شريرا ؟ » أو « أظن الإنسان شريرا ؟ »

اختلاف موقف الخطاب :

وقد التفت « سيويه » إلى أن لموقف الخطاب حالات متباينة ، والتفت إلى أن العبارة اللغوية تتباين على قدر ذلك.

فإذا كنت تستمهل رجلا ، على حديثه ، رأيته يعالج شيئا قلت : « رويدا » ، وكذا إذا كنت تستمهل اثنين أو ثلاثة أو كنت تستمهل امرأة أو أكثر ...

أمّا إذا كنت تستمهل رجلا ، في جماعة ، فإنك تقول : « رويدك » ، وكذا إذا كنت تستمهل امرأة في جماعة فإنك تقول : « رويدك » .. الخ .

قال « سيويه » : « وهذه الكاف التي لحقت « رويدا » إنما لحقت لتبيين المخاطب المخصوص لأن « رويدك » تقع للواحد والجميع ، والذكر والأنثى ، فإنما أدخل « الكاف » حين خاف التباس من يعنني بمن لا يعنني ، وإنما حذفها في الأول استغناء بعلم المخاطب أنه لا يعنني غيره ^(١) .

وكما تختلف العبارة وفقا لحالة الأفراد والجماعات تختلف وفقا لحالة المخاطب من الإقبال والإنصراف . . . فإذا قصدت إلى خطاب الرجل وهو غير مقبل عليك غير متنبه إليك قلت : « يا فلان » ، أنت تفعل ، فتبدأ بالنداء حتى يقبل عليك ، أما إذا كان مقبلا عليك بوجهه منصتا لك ^(٢) فإنك تقول : « أنت تفعل » ، فتترك « يا فلان » استغناء بإقباله عليك ^(٣) .

(١) « الكتاب » : (هاون) : ٢٤٤/١ .

(٢) المصدر السابق في الوطن السابق . ومن أمثلة ذلك ما حكى من عبارتي :

اللغة ظاهرة اجتماعية :

وأدرك « سيوييه » أن اللغة ظاهرة لازمة للاجتماع الإنساني . وهي ، عنده ، إنما تعبّر عن الأشياء حين تقع في مجال الخبرة الإنسانية . والتعبير اللغوي عن معطيات العالم الخارجي يكون عامّاً مشتركاً أو محدداً مختصّاً وفقاً لمدى العلاقة بين هذه المعطيات والحياة الاجتماعية .

قال يفسّر منّح الأسد وما أشبهه أن يكون له علّمٌ شَخْصِيّ ، بعد ما لاحظ أن العلّم ، في الحيوان ، يكون للجنس (أسامة للأسد ، وثعالة للثعلب . . .) : « وإنّما منع الأسد وما أشبهه أن يكون له اسمٌ معناه معنى « زيد » ، أن « الأسد » وما أشبهها ليست بأشياء ثابتة مقيمة مع الناس فيحتاجوا إلى أسماء يعرفون بها بعضاً من بعض ، ولا تُحفظُ حلّالها ^(١) كحفظ ما يثبت مع الناس ويقتنونه ويتخذونه . ألا تراهم قد اختصّوا « الخيل » و « الإبل » و « الغنم » و « الكلاب » وما تثبت معهم واتخذوه بأسماء كـ « زيد » و « عمرو » ... » ^(٢) .

وبدلّ على وضوح هذه الحقيقة في نفسه أنه احتجّ بها من وجهها الآخر حيث جعل تعبير اللغة عن المعطيات الخارجية بطريقة محدّدة مختصة دليلاً على قربها من الإنسان ، قال : « . . . والأماكن إلى الأناسي وتحوّهم أقرب ^(٣) . ألا ترى أنّهم يخصّصونها بأسماء كـ « زيد » و « عمرو » ، وفي قولهم : « مكّة » و « عمان »

« سقيا وسقيا لك » في الدعاء قال : « أمّا ذكرهم لك » بعد « سقيا » فإنّما هو ليبينوا المعنيّ بالدعاء . وربّما تركوه استغناءً ، إذا عرّف الداعي أنّه قد علّم من يعني . (« الكتاب » ، هارون ، ١/٣١٢) .

(١) جمع « حلية » ، وهي - بالكسر - الخلقة والصورة والصفة (القاموس المحيط - حلى) .

(٢) « الكتاب » (هارون) : ٩٤/٢ .

(٣) يعني أقرب من الأزمنة ، ذلك أنّه ذهب إلى أن الزمان أقرب إلى الفعل .

ونحوهما...»^(١).

التحليل النحوي والتركيب الإجتماعي :

ويبلغ من إحساس « سيديويه » بـ « اجتماعية » اللغة أن يحلل التراكيب النحوية ، ويفسرها على أنها صور من التركيب الإجتماعي لأهل اللغة . ونراه ينظر إلى ما يكون من علاقات الكلمات داخل التراكيب في ضوء ما يكون من علاقات الأفراد في مجتمع يقوم على اعتبار الأنساب ورعاية روابط الدم^(٢) . ونراه يستعين على تحليل بعض التراكيب ، والكشف عن أبنيتها الجوانبية بمفاتيح من فهم المواضع الاجتماعية في مراعات العلاقات الخاصة التي تربط بين الناس . يقول في تحليل جواز أن نقول : « زيدا » لقيت أخاه ، بنصب « زيد » : « أنه (أي الفعل لقي) إذا وقع على شيء من سببه (أي سبب « زيد » و ذلك « أخاه ») فكأنه قد وقع به » (هكذا ينتصب)^(٣) : ويرد ف قائلا : « والدليل على ذلك أن الرجل يقول : « أهنت زيدا » بلهانتك « أخاه » ، وأكرمته باكرامك « أخاه » . وهذا النحو في الكلام كثير ، يقول الرجل : إننا أعطيت « زيدا »^(٤) ، وإنما يريد : « لمكان زيد أعطيت فلانا »...»^(٥).

(١) « الكتاب » (هارون) : ٣٦/١ و ٣٧ .

(٢) هذا حكم لا يقصد به الإطلاق . والمقصود به ، على التحديد ، حال المجتمع العربي في الجاهلية ، وصور من استشهاده للعصبية ، والمظاهر الإيجابية من رعاية القرى في الاسلام .

(٣) « الكتاب » (هارون) : ٨٣/١ .

(٤) واضح أن جملة : « أعطيت زيدا » يمكن أن تفيد معنيين : الأول معنى « البناء البراني » ويتمثل في أن الفعل (أعطى) و فاعله (التاء) ومفعوله (زيدا) ، والثاني معنى « البناء الجواني » ، وقد استدلل عليه « سيديويه » بمواضع المجتمع ، ويتمثل في أن الفعل (أعطى) فاعله (التاء) أمّا مفعوله فهو (رجل) تربطه بـ « زيد » علاقة ما . وليس « زيدا » نفسه .

(٥) « الكتاب » (هارون) : ٨٣/١ .

اللغة والمجتمع:

ويبدولنا أن «سيبويه» ، في موقفه من اللهجات ، كان يترجم ملاحظاته هذه في إدراك العلاقة بين اللغة والمجتمع . فهو ، في موقفه منها ، يعبر عن وعي يصير بدور اللغة الواحدة المشتركة في صياغة المجتمع الواحد .

ذلك أننا نراه ، في كتابه يتجاهل واقع اللهجات القائم على التفاوت ، ونراه يتناول هذه اللهجات ، مع اختلافها ، على أنها موادّ نظام لغوي واحد أو طبقات صرح لغوي واحد . وهكذا نجد لديه اللهجتين المتباينتين تدخلان في بناء العربية الواحدة ، ونخفضان لنسق من الأحكام واحد ، ونجده يتجاهل الإزدواج الناجم عن ذلك في إطار التوجيه المقدس للتوحيد ، حيث ترى كل قبيلة سماتها اللغوية الخاصة تسهم في إشادة الصرح إسهاماً أننا من فلذات الأكباد .

قال في بيانه عن علامات في الأسماء وتمثيله لها: «فالفتح في الأسماء قولهم: «حيث» و«أين» و«كيف» . والكسر فيها نحو: «أولاء» و«حذار» و«بداد»^(١) . والضم نحو: «حيث» و«قبل» و«بعد» . والوقف^(٢) نحو «من» و«كم» و«قط» و«إذ»^(٣) . والحق أن بناء «حيث» على «الضم» كان وجها عند بعض القبائل ، وأن بناءها على «الفتح» كان وجها في «بني يربوع» و«طهية» (من تميم)^(٤) . ومعلوم أنه يكون لكل فريق مذهب واحد فيها . أما هذا المذهب المزدوج فهو المثل الشمولي المتحد الذي يرسمه «سيبويه» .

(١) يقال : «جاءت الخيل بداد» أي متفرقة متبددة . و «ذهب القوم بداد بداد» أي واحدا واحدا ، مبني على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو البدّد .. الخ «اللسان» (بدد) .

(٢) أي السكون كما شاع في الإصطلاح من بعد .

(٣) «الكتاب» (هارون) : ١٥/١ .

(٤) «اللسان» (حيث) .

ومن أمثلة هذا، أيضاً، مانجد لديه من جعل السمة اللهجية الخاصة بمنزلة الظاهرة اللغوية العامة، وهو في ذلك يُلمسح إلى أن تلك سمة لهجية، ولكنه يتجافى عن عزوها فلا ينسبها، وتلك خطوة حاسمة في إغفال التمييز القبلي.

قال في بيانه عن علامات البناء في الحروف: «... والتضم فيها: «منذ»، فيمن جربها...»^(١). ويصبح التضم علامة بناء للحرف في «نحو العربية»، وهو، فيما كان، علامة بناء للحرف في «نحو اللهجة الحجازية»^(٢).

وزراه يلم شوارد اللهجات الخاصة، ويضبطها بأصل في اللغة المشتركة فلا يفهمها على حِدَتِها وفق قواعد مستقلة، بل يسلكها جميعاً في النظام الفصيح المنشود. فقد تأول «قول بعض العرب: لَيْسَ خَلَقَ اللهُ مثله»^(٣) على «أن فيه اصمارة»^(٤) «مثل ما في إنه»^(٥) يريد ضمير الشأن في قولهم: «إنه من يأتي نأته»^(٦) ورَدَّ هذا النمط في استعمالها إلى الأصل الغالب الشائع حيث تكون فعلاً ناقصاً يدخل على الجملة الإسمية، ولم يفسر «ليس» على ظاهرها هنا بأن يحتملها على «ما» في الدخول على الجمل الفعلية وإفادة النفي. بل أنه ساق هذا الوجه الظاهر، وسرد بعض أمثله، ودفعه. قال: «وقد زعم بعضهم أن ليس تُجعل كـ«ما»... والوجه والحد أن تحمِلَه على أن في «ليس» إصمارة...»^(٧).

ونظر في قول العرب: «إذا كان غداً فأنتي»، فاعتد (غد) فاعلاً لـ«كان»، ثم نظر أخرى فوجد «تيم» نقول: «إذا كان غداً فأنتي» ففسره على أن «المعنى أنه لقي رجلاً فقال له: إذا كان ما نحن عليه من السلامة أو كان ما نحن عليه من

(١) «الكتاب» (هارون): ١٧/١.

(٢) «الذين ينونها على التضم ويحرون بها، فيما حكى «الأخفش»، هم «الحجازيون». وأنظر: «شرح الكافية»: ١١٠/٢.

(٣) «الكتاب» (هارون): ٧٠/١.

(٤) «المصدر السابق»: ٦٩/١.

(٥) «المصدر نفسه»: ١٤٧/١.

البلاء في «غدي» فتأتني ، ولكنهم أصمروا استخفافا ^(١) فتأولوه ، على ما نرى ، بإسقاط الفاعل للدلالة قرينة السياق عليه ، وجعل «غدا» ظرفا ، متجاهلا أن هذا الفرق بين رفع ونصب واقع في مجالين لغويين مختلفين ، وأنه فرق حادث قد يعود إلى حقائق تطوّر نظام الأعراب ^(٢) . . . فطبق حكما واحدا ، مطوّعا ما ندّ من شواذ اللهجات لنسق العربية الواحدة .

ويصبح الأمر عنده مزاجا لغويا متداخلا وثيقا ، تضعيع فيه نقطة البدء ، وذلك حيث نراه يجعل التهمة اللهجية الخاصة حمّة على الظاهرة اللغوية العامة ، إذ يعلّل ما يكون في العربية من ثبوت الألف في الأفعال الخمسة على حالات الإعراب (هما يفعلان ، ولم يفعلا ، ولن يفعلا) وما يكون من ثبوت نون النسوة على هذه الأحوال المختلفة (هنّ يفعلن ، لمّ يفعلن ، لنّ يفعلن) ، بما يلاحظ من ثبوت الألف علامة إصغار وتثنية (أكرماني والداك) ، وثبوت نون النسوة علامة إصغار وجمع (رأين الغواني الشيب لاح بعارضي) ، في لغة «أكلوني البراغيث» ^(٣) ثمّ يحتاج لهذه التهمة اللهجية الخاصة نفسها «لغة أكلوني البراغيث» بملاحظ من اللغة المشتركة ، إذ يعلّل ما رأى من تثنية بعض العرب للفعل مع فاعله الاسم الظاهر المثني (أكرماني والداك) وما رأى من جمعهم له مع فاعله الاسم الظاهر التّال على الجمع (أعانوني أصدقاؤك) ، على خلاف الأصل السائد في توحيد الفعل مع فاعله مفردا كان (قال لي صاحبي . .) أو مثني (قال رجلا من الذين يخافون . .) أو جمعا (قال الظالمون . .) يعلّل ما رأى من ذلك بما لاحظ من تأنيث الفعل مع فاعله المؤنث (قالت أميمة ما لجسمك شاحبا) . يقول : «كانتهم

(١) «الكتاب» (هارون) : ٢٢٤/١ .

(٢) هناك بيان مفصّل عن هذه المسألة في مقالة لكاتب هذه السطور ، عنوانها «ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة» ستشر في العدد القادم من «مجلة الأبحاث» (الجامعة الأميركية في بيروت) أوائل عام ١٩٧٤ م .

(٣) «الكتاب» (هارون) : ٢٠ و ١٩/١ .

أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث ^(١) .
وهكذا حَمَلَ الأصل في «ألف الاثنين» و «نون النسوة» على أحوال الإعراب
على الفرع الشاذ من ثبوت «ألف الاثنين» و «نون النسوة» في لغة «أكلوني البراغيث» .
ثم عاد يحمل هذا الفرع الشاذ (لغة أكلوني البراغيث) على أصل آخر مطرد في العربية
هو تأنيث الفعل بـ «التاء» مع فاعله المؤنث .

وهذا موقف من المداخلة لا يغفره لـ «سيبويه» إلا أنه يستجيب لحركة المجتمع
يومذاك في نزوعها إلى المثال الجامع الواحد .

وقد رصد «سيبويه» ، على هذا التصعيد ، جانباً من عملية التوحيد اللغوي
تَمَثَّلَ في تنازل القبائل عن بعض سماتها اللهجية إمتثالاً لـ «لغة القرآن» واستجابة
للتوجيه الجديد . فقد استشهد على «ما» الحجازية بقوله تعالى : « ما هذا بشراً » ،
وعقب عليه قائلا : « وبنو نعيم » يرفعونها ^(٢) إلا مَنْ دَرَى كيف هي في المصحف ^(٣) .

الدين واللغة :

وقد نفذ «سيبويه» من خلال المراوحة الغنية بين النظر في الأنماط اللغوية
والمواقف الاجتماعية ، إلى إدراك صور من تأثير الدين في اللغة وتوجيهه للتعبير اللغوي .
وسجّل «سيبويه» بعض ما تختص عن ذلك من تخصيص تراكيب معلومة لمواضع
معلومة ، بتوجيه ديني خالص . ومن ذلك أنه لاحظ أنه لا يجوز لك أن تقول :
« الحمدُ لزيد » ، في مقام التعظيم ، فإنه « ليس كل شيء من الكلام يكون تعظيماً
لله عز وجلّ يكون تعظيماً لغيره من المخلوقين » ^(٤) .

وجدير بالذكر أن ملاحظات علماء اللغة الاجتماعيين حول تخصص ألفاظ

(١) «الكتاب» (هارون) : ٤٠/٢ .

(٢) يقولون : « ما هذا بشر » .

(٣) «الكتاب» (هارون) : ٥٩/١ .

(٤) «الكتاب» (هارون) : ٦٩/٢ .

و تراکیب معلومه بمواقف دینیّه أو تقلیدیّه معلومه (۱) هی أشبهه ما یکون بهذه الملاحظه .

احتراس :

و حقّاً أنّ بحوث علم المعانی قد تکاملت واستقرّت فیما بعد ، و فیها نظرات لطیفه إلى حال المخاطب ، و حال المتکلم ، و طبیعه الموقف الإجتماعی ، و معطیات الواقع الخارجیّ و ما یکون لذلك کله من أثر فی المراهجه بین ترکیب و ترکیب ، و ما یکون له من دور فی توجیه البناء النحوی البرانی الواحد إلى أبنیه جوانیبه متعدده (۲) .

ولکن « سیویه » لم یقتصر علی مستوى التراکیب فی ملاحظاته هذه ، بل مضى یروّد مستويات البنیة ، و الدلاله ، و الإعراب . و هكذا اتسع ما لم یتسعوا کما سبق ما لم یسبقوا .

(۱) من مثل ما یکون من اختصاص « Thuo » ضمیر المخاطب بمواقف دینیّه أو تقلیدیّه مخصوصه و استعمال « You » فیما عدا ذلك . (۳) (۲) (۱)

(۲) کالتدی لاحظوا ، مثلاً ، من خروج الإستفهام عن معناه الأصليّ إلى معان أخرى تفهم من سیاق الکلام و قرائن الأحوال . . . الخ و أنظر مثلاً : « علم المعانی » ل « درویش الجنیدی » : ص ۵۲ و ما حولها . (۳) (۲) (۱)

المراجع

(أ)

* مراجع أفدت منها إفادة رئيسية ، بل يكاد البحث يقوم عليها :

١ - « الكتاب » (كتاب سيديويه) ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون .

الجزء الأول ، دار القلم ، ١٣٨٥ هـ . ق . = ١٩٦٦ م .

الجزء الثاني ، « دار الكتاب العربي للطباعة والنشر » ، « القاهرة » ١٣٨٨ هـ . ق . =

١٩٦٨ م .

الجزء الثالث ، « الهيئة المصرية العامة للكتاب » ١٣٩١ هـ . ق . = ١٩٧٣ م .

٢ - « كتاب سيديويه » ، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ، « بولاق » ،

١٣١٧ هـ . ق . الجزء الثاني .

(وهكذا اعتمدت في درس « الكتاب » على ما صدر منه حتى الآن في نشرة

« عبدالسلام هارون » . أما سائر ما اعتمدت فيه على طبعة « بولاق »).

Robbins, Burling : Mam's Many Voices (Language in its

cultural context) Holt New York . . .

1970.

(ب)

* مراجع وقفت عليها في مرحلة التبيين ، واختيار الموضوع ، وكان من

غايتي ، في الوقوف عليها ، أن أبدأ من حيث انتهى غيرى تجنباً لتكرار القول

في موضوع واحد :

٤ - « أبنية التصرف في كتاب سيديويه » ، لـ « خديجة الحديشي » ، مكتبة النهضة - « بغداد » ،

١٩٦٥ م . (= ١٣٨٥ هـ . ق .) .

- ٥ - « تطور الدرس النحوي » ، لـ « حسن عون » ، « معهد البحوث والدراسات العربية » ، « جامعة الدول العربية » ١٩٧٠ م .
- ٦ - « الرثماني النحوي » في ضوء شرحه لـ « كتاب سيديويه » ، لـ « هازن المبارك » ، « دمشق » ١٣٨٣ هـ . ق . (= ١٩٦٣ م) .
- ٧ - « سيديويه إمام النحاة » ، لـ « علي النجدي ناصف » ، مكتبة نهضة مصر « القاهرة » ، ١٣٧٢ هـ . ق . (= ١٩٥٤ م) .
- ٨ - « سيديويه » ، مادة « سيديويه » ، في « دائرة المعارف الإسلامية » ، لـ « كرنكوف » (F. Krenkov) .
- ٩ - « سيديويه والقراءات » ، لـ « أحمد مكّي الأنصاري » . توزيع « دارالمعارف » ، « مصر » ١٣٩٢ هـ . ق . (= ١٩٧٢ م) .
- ١٠ - « فهرس شواهد سيديويه » ، لـ « أحمد راتب التفّاح » . « دارالإرشاد » - « دارالأمانة » « بيروت » ١٣٨٩ هـ . ق . (= ١٩٧٠ م) .
- ١١ - « الكتاب » ، لـ « مهدي المخزومي » (مقالة في مجلة كلية الآداب والعلوم « بغداد » ، العدد الثاني ، حزيران ١٩٥٧ م) .
- ١٢ - « كتاب سيديويه وشروحه » ، لـ « خديجة الخديثي » . « بغداد » ١٣٨٦ هـ . ق . (= ١٩٦٧ م) .
- ١٣ - « اللغة والمجتمع » ، لـ « محمد السعران » ، « دارالمعارف » ١٩٦٣ م .
- ١٤ - « المدارس النحوية » ، لـ « شوقي ضيف » ، « دارالمعارف » ١٩٦٨ م .
- ١٥ - « النحو والعربي » : العلة النحوية ، نشأتها وتطورها ، لـ « هازن المبارك » ، المكتبة الحديثة ١٣٨٥ هـ . ق . (= ١٩٦٥ م) .

(ج)

* مراجع أفدت منها إفادة جزئية أو استأنست بها أثناء إعدادي للبحث:

- ١٦ - « أبحاث في اللغة العربية » ، لـ « داود عبده » ، « مكتبة لبنان » « بيروت »

- ١٧ - « أسرار العربية » ، لـ « ابن الأنباري » ، بتحقيق « محمد بهجة البيطار » ،
دمشق ١٣٧٧ هـ . ق . (١٩٥٧ م) .
- ١٨ - « الأصوات اللغوية » ، لـ « إبراهيم أنيس » ، « دار النهضة العربية » ، « القاهرة » ،
١٩٦١ م .
- ١٩ - « البلاغة ، تطوّر وتاريخ » ، لـ « شوقي ضيف » ، « دار المعارف » ، « مصر » ،
١٩٦٥ م .
- ٢٠ - « دلائل الإعجاز » ، لـ « عبد القاهر الجرجاني » ، بتصحيح « محمد عبده »
و « الشنقيطي » ، « مكتبة القاهرة » ١٣٨١ هـ . ق . (١٩٦١ م) .
- ٢١ - « شرح الكافية » ، لـ « الرضوي » ، ١٢٧٥ هـ . ق .
- ٢٢ - « ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة » ، لـ « نهاد الموصى » (مقالة
مخطوطة ستُنشر في العدد القادم من « مجلة الأبحاث » - الجامعة الأميركية في
بيروت) - أوائل عام (١٩٧٤ م) .
- ٢٣ - « علم اللغة » (مقدمة للقارئ العربي) ، لـ « محمود السعران » ، « دار المعارف »
، « مصر » ١٩٦٢ م .
- ٢٤ - « علم المعاني » ، لـ « درويش الجندبي » ، مكتبة « نهضة مصر بالفجالة » .
- ٢٥ - « الفعل زمانه وأبنيته » ، لـ « إبراهيم السامرائي » ، « مطبعة العاني » ، « بغداد »
١٣٨٦ هـ . ق . (= ١٩٦٦ م) .
- ٢٦ - « القاموس المحيط » ، لـ « لفيروز آبادي » ، « المكتبة التجارية » ، « القاهرة »
١٣٣٢ هـ . ق . (= ١٩١٣ م) .
- ٢٧ - « لحن العامة والتطوّر اللغوي » ، لـ « رمضان عبد التّواب » ، « القاهرة » ،
١٩٦٧ م .
- ٢٨ - « لسان العرب » ، لـ « ابن منظور » ، « بيروت » ١٣٧٦ هـ . ق . (= ١٩٥٦ م) .
- Noam Chomsky : Topics in the Theory of
Generative Grammar, Mouton, The Hague - Paris 1969.

(٥)

* اساتذة وزملاء لي في قسم اللغة العربية ، وقَفَتْهُمْ على هذه المقالة جلها
أوكلها فأنشوا خيرا أو رأوا رأيا ، وقد انتفعتُ بأرائهم ما أطقُنتُ ، ولهم
منِّي شكر وافر :

الدكتور «عبد الرحمن ياغي» .

الدكتور «عصمة غوشة» .

الدكتور «محمد عبده عزّام» .

الدكتور «نصرت عبد الرحمن» .

الدكتور «هاشم ياغي» .